قراءة في كتاب

الكتابة والتصوف لخالد بلقاسم

دة. ربيعة العربي

أستاذة التعليم العالي- جامعة ابن زهر

خبيرة في اللسانيات والعلوم الاجتماعية

لدى منظمة الإيسسكو

ملخص

كتاب "الكتابة والتصوف"من تأليف خالد بلقاسم، وقد صدر عن دار توبقال سنة 2004. ترجع أهمية هذا الكتاب إلى كونه طرح إشكال الكتابة في المنظومة الصوفية، وقد اعتمد الباحث ابن عربي نموذجا ومؤلفاته موجها في تقديم إجابات عن الإشكالات التي تطرح بخصوص الكتابة الصوفية. حرص الباحث على حصر ما تنفرد به هذه الكتابة من خواص ومقومات تجعلها متمايزة عن الكتابات غير الصوفية بمختلف أنماطها. ترجع أهمية هذا الكتاب إلى كونه مقاربة علمية جادة اتخذت منحيين:

- القراءة من داخل النص الصوفي وما يطرحه ذلك من صعوبات في تحديد آليات اشتغاله وصيغ بنائه، خاصة أن الخطاب الصوفي يفترض فيه أنه خطاب موجه إلى القلب لا العقل. نجد إقرارا لهذا الافتراض في كونه ينأى عن التسلسل المنطقي الذي يسعف المتلقي في بناء الأفكار في قالب نسقي واضح. من هنا لزم البحث عن نسقية شديدة الخصوصية وما يتطلبه ذلك من المجاهدة في ملء البياضات الكثيرة التي هي ميزة محددة للخطاب الصوفي.

- القراءة من خارج النص. يتجلى ذلك في استناده إلى مراجع قديمة وحديثة ومراجع عربية وغربية.

وهما منحيان أغنيا الكتاب ومكناه من تفكيك خطاب ابن عربي لجمع ما ورد متشتتا في مؤلفاته العديدة وإعادة بنائه وفق تصور واضح يظهر ما يخفيه ويستبطن نسقيته الشديدة الخصوصية .

الكلمات المفاتيح

الكتابة - التصوف - الكتابة الصوفية - الخيال - المعرفي - الأنطولوجي- الإلهي - الإنسي - القلم - اللوح المحفوظ - البعد العلائقي - الشعر- القرآن - الصورة - الذات - الغير -الدلالة الشبقية - الوصل - الفصل - علم التوالج.

summary

The book "Writing and Sufism" was written by Khaled Belkacem, and it was published by Dar Toubkal in 2004. The importance of this book is due to the fact that it presented the forms of writing in the Sufi system. The researcher adopted Ibn Arabi and his writings as a model in order to provide answers to the problems that arose about Sufi writing. The researcher identified what was unique to this writing in terms of characteristics and elements that made it distinct from non-Sufi writings in its various types. The importance of this book resides in it's scientific approach that adopts two aspects:

- Reading from within the Sufi text and the difficulties that this poses in determining the mechanisms of its operation and the forms for its construction, especially since the Sufi discourse is supposed to be a discourse addressed to the heart, not the mind. We find confirmation of this assumption in the fact that it does not use the logical sequence that helps the recipient in building ideas in a clear and systematic way. For this reason, it is necessary to search for a very specific system. This requires striving to fill in the many emptiness blanks that are a defining feature of Sufi discourse.

- Reading from outside the text as well. This is evident in its reliance on ancient and modern references, as well as Arab and Western references.

The two aspects enriched the book and enable the researcher to analyze Ibn Arabi's discourse in order to collect what was scattered in his many writings and to rebuild it according to a clear conception that shows what he hides and internalizes in his specific system.

keywords

Writing - Sufism - Sufi writing - imagination - epistemology - ontology - the divine - human - Alqalam - al-Lawh al-Mahfooz - relational dimension - poetry - Qur'an - image - the self - the other - erotic significance - connection - separation .

مقدمة

ينطلق خالد بلقاسم من فكرة أولية تتلخص في أن الخطاب الصوفي يتيح إعادة بناء الثقافة العربية، و يسجل أن أسئلة الخطاب الصوفي قد تم تهميشها، و هو ما قاد إلى عدم استثمار إمكاناته. من هنا يأتي هذا الكتاب مشروعا لبناء قراءة جديدة تطمح إلى أن تكون مغايرة للمنجز في هذا الباب لتبنيها بُعد التفكيك الذي يتخذه الباحث منطلقا لإعادة بناء الخطاب الصوفي. تتأسس إعادة البناء هاته على جملة من المداخل التي يؤطرها إشكال جوهري وفرضيات موجهة ومفاهيم إجرائية.

يرتبط الإشكال الجوهري بمساءلة آليات اشتغال خيال ابن عربي في ممارسته لفعل الكتابة وبنائه لمفهومها وصرف اهتمامه إلى رصد تعالقات هذا المفهوم مع غيره من المفاهيم. يسعى الباحث من خلال مقاربة هذا الإشكال إلى حصر أسباب تفرد خطاب ابن عربي. أما الفرضيتان اللتان انطلق منهما فيصوغهما كالآتي:

أ- ترتبط كتابة ابن عربي بخلفية وجودية ومعرفية ولغوية، خولت له هذا التفرد الذي تتسم به كتابته.

ب - الكتابة ممارسة ومفهوما مكنت ابن عربي من إدراك محدودية اللغة. لذلك كان حريصا على توسيع معانيها واستنفاذ كل إمكاناتها الدلالية، لكي تكون قادرة على التعبير عن التجربة الصوفية بكل زخمها.

في ضوء هاتين الفرضيتين، يرى الباحث أن ابن عربي منظر للكتابة وشاعر منتج لخطاب تتداخل فيه أسئلة الشكل الكتابي بقضية الأجناسية، وهو يؤكد أن لهذا الخطاب نسقيته المتفردة التي يستدعي ضبطها تجاوز التفكك الظاهر للبحث عن الروابط العميقة، وما يقتضيه ذلك من تجاوز البنية السطحية للخطاب والبحث في بنيته العميقة، لأن خطاب ابن عربي منفتح على احتمالات شتى.

لم ينطلق الباحث من تحديد قبلي لمفهوم الكتابة، وإنما من محاولة تحديد الآليات التي وظفها ابن عربي لتأسيسها، مع التنبيه إلى أن المتصوفة عادة يتحاشون التضييق بالحد والتعريف. هذا ما جعل من

تتبع مسار بناء هذا المفهوم منهجية موفقة مكنت من رصد دلالاته المتشعبة،التي منها ما يتسع ليشمل الوجود والقرآن ومنها ما يضيق ليقتصر على الشعر. وهو في ضيقه واتساعه مرتبط بالرؤى والتجليات.

تناول الباحث مفهوم الكتابة في أبعاده المتعددة متوخيا الكشف عن قضايا نظرية متعددة كالعلاقة بين الخط والصوت والفعل الشبقي وغيرها من القضايا التي ناقشها بالانطلاق من ربط. مفهوم الكتابة بمفهوم الخطاب. مكنه هذا الربط من المزاوجة بين البعد اللغوي والبعد غير لغوي. غير أن الأساس الإبستيمي الجامع بين هذين النمطين هو اعتبار الخطاب دليلا واعتبار أن اللغة تسبق الخطاب. إن هذا الاستحضار للغة والخطاب نجده أيضا في الشعرية التي رأت في تحويل قيم اللغة إلى قيم الخطاب مولدا لنسقية متفردة للذات الكاتبة، جاعلة بذلك فعل الكتابة فعل تموضعٍ في اللغة والتاريخ والثقافة.

بهذا يفرع الباحث خطاب ابن عربي إلى نمطين:

- خطاب واصف له موجهاته ومنطلقاته ومفاهيمه و آلياته.

- خطاب مرتبط بممارسة نصية تقوم على شعرية الخطاب.

انطلاقا من هذا التفريع العام، يقسم الباحث كتابه إلى أربعة أقسام:

- أنطولوجيا الكتابة

- الكتابة الصوفية بين الإلهي و الإنسي

- الشعر و الكتابة

- شعرية الكتابة.

1 - أنطولوجيا الكتابة

1 - 1 - التأثيل الصوفي للكتابة

خصص الباحث الفصل الأول من هذا القسم لحصر الموجهات المعتمدة لدى ابن عربي في بناء المفاهيم وضبط تقعيده لمفهوم الكتابة، و قد فرعه إلى فصلين. عنون الأول منهما ب"سياج أولي". يفتتح الباحث هذا الفصل بالتنبيه إلى أن تحديد مفهوم الكتابة بشكل قبلي لا يسعف في ضبط الكتابة عند ابن عربي، التي تتميز بكونها ثائرة عن كل تقييد ما عدا تقييدين: المعرفي والأنطولوجي، لذلك لزم إفساح المجال للنص

ليفصح عن نظريته ولزم التحاور معه بخلفية جدلية، تمكن من إعادة بنائه من الداخل في إطار التصورات الحديثة.

إن المحدد لموجهات الكتابة عند ابن عربي هو المزاوجة بين مفهوم الكتابة الوجودية ومفهوم الكتابة الإنسانية، وهو يستحضر مفهوم التوسيع لكي يربط بين المفهومين. لذلك نجد الباحث ينبه إلى ضرورة استحضار هذا المفهوم في صميم العلاقة التي عقدها ابن عربي بين الخيال والنكاح وبين الإلهي والإنسي وبين مفهوم الكتابة والشعر.

رغم أن ابن عربي قد تحدث عن مفهوم الكتاب والكاتب في مؤلفه "**التدبيرات الإلهية في اصطلاح المملكة الإنسانية**"، فإنه لا يسعفنا كثيرا في بناء تصوره العام بالاكتفاء بهذا الكتاب، بل يتعين الرجوع إلى كتبه الأخرى وعلى رأسها "**الفتوحات المكية**". بالتالي فإن ضبط هذا التصور العام اقتضى من الباحث النبش في مجمل كتب ابن عربي. لكونه يستحضر في بنائه لدلالة المفهوم مفاهيم أخرى ويحاورها انطلاقا من تجربته الخاصة في الكتابة، ويوظف في بناء تصوره موجهات محددة، منها الخيال والتجربة، كما أنه تجاوز حدود النظر العقلي ليربط الخيال بالنكاح في مقاربته للعلاقة بين الإلهي والإنسي.

انطلاقا من هذه الخلاصة، يعول الباحث على تأملات ابن عربي حول مفهوم الكتابة قبل مساءلة الآليات التي يوظفها في الممارسة النصية وتحديد وضعية الشعر ضمن هذه الممارسة. إن أهم منطلق في بناء المفاهيم عند ابن عربي هو كشف محدودية معانيها واختزال إمكاناتها العديدة في إمكان واحد والعمل على فتح هذا الإمكان على احتمالات أخرى. بالتالي فهو يشتغل على توسيع المفهوم استنادا إلى فهمه للوجود والمعرفة. إن آلية التوسيع تتعارض مع موجهات الضبط والحصر التي نجدها في الكتابة الأرسطية. ذلك أن الإستراتيجية التي اعتمدها ابن عربي تنبني على المزج بين البعد النظري والبعد التجريبي. يحصر الباحث بعض أسس هذه الإستراتيجية فيما يلي:

- الخلفية الأنطولوجية: أهم ما ينهض عليه التصور الأنطولوجي لابن عربي اقتراحه لمفهوم الوسيط في مقاربته لمختلف القضايا التي تناولها والمفاهيم التي وظفها، وعلى رأسها مفاهيم الكلام والحب والنكاح والخيال والكتابة. في الحديث عن الكلام مثلا، يستحضر "كن" التي منها تكون العالم، أما الحديث عن الحب فيؤسسه من الحب الأول الذي بموجبه صدر العالم، والحديث عن النكاح يقرنه بالنكاح الأول الذي يجسده الأمر الإلهي "كن" والحديث عن الخيال يقوم على ربطه بالوجود والعلاقة بين الله والإنسان، والحديث عن الكتابة يربطه بالكتابة الأولى التي تلاقى فيها القلم باللوح. هذه البذرة الوجودية يعتبرها الباحث

أساسية في النسق الذي يبنيه ابن عربي بتشابكاته المتعددة. لفهم ذلك يؤكد ضرورة استحضار تصوره للخلق، لأنه هو الموجه للمفهوم والمحدد لآلياته التي تقوم على الوصل والفصل ما بين الإلهي والإنساني ومابين الباطن والظاهر، معتبرا أن الفصل ما هو إلا وصل محجوب، لذلك نجد ابن عربي يركز على العلاقات الخفية التي يحيل عليها في أبعادها الوجودية والمعرفية واللغوية. فهو لا يراهن على الحس ولا على العقل، وإنما يراهن على الخيال الذي يجمع بينهما والذي يتيح تجاوز ضيق الثنائيات. من هنا كان الوصل سندا للبناء بالتوسيع الذي يمَكن الدوال من الانفتاح على مدلولات أخرى، فالنكاح مثلا، لا يحصره في بعده الحسي بل يرتقي به إلى بعده المعنوي وبعده الإلهي. بالتالي يكون التوسيع آلية تمكن من رؤية الشيء في غيره، وهذا هو الذي جعله يربطه بالتجلي والتجدد. إلى هذا يوميء كوربان Corbin الذي عد مفهوم الخلق الجديد من المفاهيم المفاتيح عند ابن عربي.

إذا كانت الذات الإلهية متعذر إدراكها، فإن أسماءه أو ما يشار إليه بالألوهة ممكنة الإدراك، لكن في تبدلها. علة ذلك أن صور التجلي لانهائية. إن التبدل هو الخاصية التي تجمع بين التجلي والخيال. من هنا يصبح الوجود سلسلة من التجليات المتجددة على الدوام عبر لحظة اختفاء وتجل: تجل للمماثل، مع التنبيه إلى أن المماثل ليس مطابقا، لأن المطابقة فيها تكرار وابن عربي ينفي وجود التكرار ويقول بمبدأ المغايرة. هذا ما حدا به إلى الاعتماد على الخيال في التقعيد للمفاهيم.

من خلال ما سبق، يستنتج الباحث ما يلي:

- تداخل الفعل القرائي بالفعل الكتابي عند ابن عربي.

- ترسيخ ابن عربي لكتابة أعادت بناء ثقافة عصره بالرهان على التوسيع و الاحتمال والاختلاف.

- ضرورة قراءة مفاهيم ابن عربي بربطها بالتوسيع.

1 - 2- الأساس الأنطولوجي للكتابة

يتحدث الباحث عن الكتابة الوجودية التي تتجاوز علاقة القلم باللوح المحفوظ لتعانق مفاهيم جديدة استمدها من تخييل كتابي. توخى منه توصيف الخلق الإلهي وهدم الحدود بين الخلق الأول وكتابة الوجود. إذ يقسم الوجود إلى وجود في العين ووجود في الذهن ووجود في اللفظ ووجود في الرقم. الوجود العيني هو وجود مرقوم تشكل عن سماع الأمر الإلهي "كن" وصدر عن حب الخروج من الكنزية. بهذا يفسر النفس الإلهي بأنه تعبير عن الحب ومنه انبثق العماء. يحيل العماء على الصور الأولى، أي الأعيان الثابتة التي

خرجت إلى الظاهر بمجرد سماعها للأمر الإلهي. إذن الخلق ناتج عن نفسين: النفس المجسد لكرب الحب والنفس المتجسد في فعل "كن". من هنا يطرح الباحث السؤال التالي: هل الكتابة الوجودية مشدودة إلى الصوت المسموع أم إلى المكتوب في اللوح المحفوظ؟ وهو يربط هذا السؤال بالخلاصات التالية:

- أثر النفس في الخلق الأول.

- تداخل الباطن بالظاهر في هذا النفس.

- تضمن العماء للنواة التي قامت عليها العلاقة بين الإلهي والإنسي، إذ يحدد العماء بأنه أقرب الموجودات إلى الله تارة و تارة يحدده بأنه الحق المخلوق به.

- العماء عند ابن عربي هو الخيال المحقق. لذلك ارتبط السؤال الأنطولوجي لديه بعلاقة الله بالعالم.

- للنفس الإلهي علاقة بالنفس الإنسي الذي يعد امتدادا له. لذلك تعد الكتابة صادرة عن النفس الإلهي.

بالإضافة إلى الكتابة الوجودية، يستحضر ابن عربي الكتابة الخطية من خلال تأويله لحرف النون في "كن" التي يعتبرها ذات صلة مباشرة بالعلم الإلهي. إنه دواة للقلم. منها يستمد علمه ليخطه في اللوح. للقلم أسماء متعددة عند ابن عربي، فهو العقل الأول والروح الكلي والعدل والعرش والحق المخلوق به والحقيقة المحمدية، وكل اسم من هذه الأسماء يختص بوجه من وجوهه. إلا أنه يوظف بصفة خاصة اسم القلم لربط فعل الكتابة بالفعل الجنسي وبالموجهات الشبقية. يتجلى هذا في تفسيره لبداية الوجود وما يربط بين الموجودات من علائق بنظريته في النكاح أو ما سماه بعلم التوالج، ومنه فرع النكاح إلى حسي ومعنوي وإلهي، وبواسطته وصل بين الكلام والنكاح وصلا مكنه من توسيع مفهوم الأمومة والأبوة باعتماد مفهوم التأثير ، فالأب مؤثر والأم مؤثر فيها، لذلك اعتبر أن كل كلام نكاح.

يربط ابن عربي النكاح المعنوي بالعناصر الذي حددها الباحث على الشكل التالي:

- العناصر الأربعة: هي أصل العالم. يرتهن العالم بأربع نسب: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والعلاقة. هذه النسب قائمة على آليتي الفاعل والمنفعل. إن هذه النسب هي التي أوجدت العقل الأول والنفس والهباء والجسم الكل، التي هي أصل ظهور الصور في العالم. إن العلاقة بين النفس والهباء تولد عنها أربع طبائع هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. تولد عن ضم هذه الطبائع الأربعة الأفلاك، فالنار تولدت عن ضم الحرارة إلى اليبوسة والتراب تولد عن ضم البرودة إلى اليبوسة والهواء نتج عن ضم الرطوبة إلى الحرارة والماء نتج عن ضم البرودة إلى الرطوبة.

- إنتاج العلوم للمعاني: يناقشه ابن عربي من زاوية نظريته في النكاح، إذ يتم إنتاج المعاني عن طريق ربط مقدمة بمقدمة أخرى متضمنة للكلمة نفسها. هنا يحيل أيضا على التوالج، معتبرا أن المقدمتين شبيهين بالأبوية، ومنهما ينتقل إلى النتيجة وهو ما يسميه بالتثليث. يمثل لذلك بما يلي:

- كل حادث له سبب.

- العالم حادث.

- العالم له سبب.

أما النكاح الحسي، فيمثل له بالمطر الذي يهطل على الأرض وما ينتج عن ذلك. إن هذا التصور للنكاح هو المؤسس لنظرية التثليث التي فسر بها الخلق، بدءا من الأمر الإلهي "كن" الذي أمر القلم بأن يكتب في اللوح المحفوظ. يماهي القلم عنده عضو الذكورة وتماهي الكتابة على اللوح المحفوظ النكاح. إنه –على حد تعبيره- "نكاح وجودي ساري في كل الذراري". إنه نكاح معنوي ذو أثر حسي.

باستحضار علاقة حواء بآدم يسجل الباحث الخلاصات التالية:

- اللوح صادر عن القلم صدور حواء عن آدم، لذلك يكون فعل الكتابة بمثابة استعادة لجزء مفتقد بالضم. يتخطى ابن عربي هذا البعد ليستحضر العلاقة بين الرائي والمرئي، التي تجسد رؤية الله لأسمائه أي لصوره.

- يتصور ابن عربي كتابة القلم على اللوح تصورا شبقيا. يتجلى هذا التصور من خلال توظيفه لحقل معجمي يحيل في مجمله على النكاح من نحو: ملامسة - تدلي - قذف.

- علاقة القلم باللوح علاقة فاعل بمنفعل، إذ الكتابة فعل إلهي نتج عنه الخلق والتصوير. ترتكز الكتابة في تصوره على مكونين: مكون وجودي ومكون شبقي. يتأطر هذان المكونان بتصوره للحروف التي اعتبرها خزانا للعلاقة بين الإلهي والإنسي، فالألف والزاي واللام (أ – ز- ل) تخص الحضرة الإلهية والنون والصاد والضاد تخص الحضرة الإنسانية. لقد اعتمد في تفسيره لهذه الحروف على بعدها العلائقي وصورها الصوتية والخطية، فإذا كانت النون ترسم على شكل نصف دائرة، فإن الصاد والضاد يجسدان اكتمال هذه الدائرة. تتخطى الحروف عند ابن عربي اللوح لتصبح حروفا مخطوطة في كتاب الوجود الذي يقرأه الصوفي، فتتولد في قلبه معاني تمكنه من تحصيل معارف بحسب أحواله. بما أن أحوال الصوفي لا تنتهي، فإن الكتابة في الوجود لا تنتهي أيضا. من هذه الزاوية، يعقد مقارنة بين حروف الوجود (المصحف الكبير)

وحروف القرآن. حروف الوجود تتلى حالا وحروف القرآن تتلى قولا. هذا التوازي هو ما جعله يقيم تمييزا بين الكتاب المرقوم (القرآن) والكتاب المسطور (الوجود) والكتاب المجهول (العلم الإلهي). يستخلص ابن عربي من العلاقة بين حروف الوجود وحروف القرآن ومن اعتبار أن قراءة القرآن هي قراءة للوجود ما يلي:

- الكتابة في الوجود مستمرة، لذلك فإن المعنى في القرآن متجدد ولا حدود له.

- الكلمة موجود والموجود كلمة واللغة خزان للوجود.

- التأويل تجربة وهو ما سماه بالذوق.

من هنا تتخذ القراءات مستويين، يحددهما الباحث على النحو التالي:

- من الحرف إلى الكلمة: الحرف في تصور ابن عربي أفصح وأبين، وهو ينتقل إلى مستوى الكلمة بدخول الحركات عليه.

- من الكلمة إلى السياق: يستدعي ابن عربي معاني الكلمة بتتبع مسار استعمالها. يسعفه هذا الاستدعاء في فهم معناها في الجملة والخطاب، كما يمكنه من إعادة ترتيب الآيات لاستخلاص معاني جديدة. منطلقه في ذلك أن الموجه في فهم القرآن هو الوجود باعتباره القرآن الكبير. من هنا تتخذ الكتابة لدى ابن عربي المظاهر التي يحددها الباحث على النحو التالي:

أ- الكتابة في اللوح المحفوظ: أسست لمفهومه للقلم واللوح المحفوظ والعلاقة الشبقية بينهما.

ب- الكتابة الوجودية: انطلاقا منها وسع مفهوم الكلمة ليتماهى مع الوجود، فالوجود كتاب والموجودات حروفه.

ج- الكتابة القرآنية: تتداخل مع الكتابة الوجودية إلى حد تلاشي الحدود بينهما.

إن هذه المظاهر الثلاثة للكتابة هي المحددة للأساس النظري الذي اعتمده ابن عربي في تقعيده للمفهوم.

2 - الكتابة الصوفية بين الإلهي والإنسي

2 - 1 - علاقة الإلهي بالإنسي في المنظور الصوفي

يتناول الباحث في الفصل الأول من القسم الثاني من الكتاب التصور الأنطولوجي لابن عربي. في إطار هذا التصور، يقوم الخيال أساسا معرفيا مفسرا للعلاقة بين الإلهي والإنسي. يستند الخيال بالدرجة الأولى على

مفهوم الصورة الذي وظفه للتدليل على الكفاية التفسيرية. لقد اعتبر ابن عربي أن الصورة شكل للتجلي، وأداة لمقاربة الفعل الكتابي، وهو في تأصيله لها يستحضر الأساس الأنطولوجي والأساس المعرفي. في ضوء هذين الأساسين، يتحدث عن دور الصورة في الخلق والعلاقة بين الله والإنسان. في إطار الصورة يستحضر الرؤية، ومن ثمة العلاقة بين الرائي والمرئي والمرآة. إن المحدد لصورة الرائي هو شكل المرآة، من حيث كبرها أو صغرها أو عرضها أو تموجها. لذلك تغدو المرآة في نظره محلا للرؤية ورائية في الآن نفسه. من منطلق هذا التصور للمرآة تمكن من تفسير علاقة الإلهي بالإنسي بتوسل مفهوم التضايف لا مفهوم الانعكاس. إن العالم في الإيجاد الأول كان مرآة غير مجلوة، وكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة. من هنا يكون الإنسان صورة من أحب رؤية نفسه. ترسخ الصورة التفاعل بين الرائي والمرآة. يجسد هذا التفاعل التماس بينهما، على اعتبار أن الناظر في المرآة هو عين المنظور وماهو عينه في آن واحد، لأن للمرآة حكما على الظاهر. إن الظاهر هو وسيط بمعنى أنه، من حيث النشأة الإنسانية، هو الله وهو غيره، وغيره لا ينبني على انفصال، بل على اتصال اجتهد ابن عربي في إبراز تجلياته، وذلك باعتماده على مفهوم البرزخ. إن مفهوم البرزخ مفهوم جوهري لدى ابن عربي، وقد توسله لحل الإشكالات الأنطولوجية والمعرفية. يتحدد هذا مفهوم بوصفه وسيطا بين طرفين وفي الآن نفسه آلية تستحضر الفصل والوصل معا. لقد اعتبره ابن عربي مفهوما يقدم العلم بذاته وبغيره. إنه مرآة للطرفين. من هنا تكون الصورة حجاب كاشف، أي فاصل موصل وليس فاصلا مانعا. لقد بنى نظرته هاته على تصور فرق الإمامية التي رأت في الحجاب إظهارا للشيء. ما يحكم الصورة هو التجدد المستمر ، و هذا التجدد المستمر مبني على منطق التجلي. بهذا المنطق يكون العالم هو ظهور العالم في صور متعددة، لذلك من السمات الأساسية للتجلي أنه لانهائي. إذ صور التجلي لا نهاية لها. الأصل في ذلك اختلاف الأشياء، فلا مثلية في الوجود. إن حقيقة الله لا تقبل المثل، ولا يمكن أن يصدر عنه ما يقبل المثل، لكن المفارقة عنده أنه لا يمكن إنكار الأمثال. لذلك انخرط ابن عربي في رصد تجليات الألوهة في الإنسان، وسيلته في ذلك الخيال، أما الذات الإلهية فهي مجهولة لا تقبل التحديد.

الكتابة فعل. لذلك تناول ابن عربي الأفعال انطلاقا من الأمر الأول" كن". غير أنه لا ينسب التكون إلى الخالق، بل إلى المكوَّن الذي له قابلية التكوين، لكنه في الآن نفسه، يرى أن المكون لا يتكون من تلقاء ذاته وبمعزل عن الأمر الإلهي. لذلك نسب الفعل للآمر ونسب الاستعداد للقابل، فالخلق هو حصيلة تماس طرفين ولا يمكن إرجاعه إلى طرف واحد. بالتالي لا يمكن فهمه إلا بالاستناد إلى مبدأ التثليث.

2 - 2 - تجربة الكتابة وكتابة التجربة

يتناول الباحث في الفصل الثاني من القسم الثاني التجربة الصوفية بوصفها سفرا نحو الأقاصي. سفر متجدد. يميز ابن عربي بين ثلاثة أسفار: سفر من عند الحق وسفر إليه- هذان السفران لهما غاية محددة- وسفر فيه وهذا هو سفر التيه والحيرة، وهو لا غاية له وضمنه تنفتح المعاني وتتولد. تعددت أنواع السفر، لأن مدارج المتصوفة ومسالكهم لم تكن واحدة، كما أن نهاياتهم ليست واحدة. لذلك، فإن الآليات الخيالية متعددة، وهو تعدد يجعل التجربة الصوفية متغيرة على الدوام.

يقارب الباحث تجربة ابن عربي انطلاقا من كتابه "**الإسرا إلى المقام الأسرى**" وانطلاقا من طرح السؤال التالي: هل كانت لابن عربي استراتيجية روحية أم استراتيجية كتابية؟

للإجابة عن هذا السؤال، يقيم تمييزا بين تجربة الكتابة وكتابة التجربة. لقد سعى ابن عربي إلى أن يتحول إلى صورة لكي يقترب من الألوهة. يقتضي هذا التحول عبور مقامات الكتابة. لقد انشغل بسماع الوحي الذي خص به الولي. هذا أقصى سفر، لأن فيه سماع للمطلق. سماع يتجاوز الأذن. سماع يتم بكل شيء ومن كل شيء و في كل شيء وهو منطلق الكتابة. إن الكتابة في رأيه ليست فعلا إراديا، بل هي استعداد للتلقي يسبقه إخلاء القلب والتخلي عن أوهام النظر والفكر. يرى ابن عربي أن الكتابة الصوفية ذات مصدر غيبي، على خلاف الكتابة غير الصوفية، التي يرى أنها تتميز بالخصائص التالية:

- مقيدة باختيار المؤلف.

- خاضعة للعلم النظري الذي ينتمي إليه.

- خاضعة لتحكم المؤلف فيما يكتب.

على خلاف الكتابة الصوفية التي يرى أن صاحبها يتميز بالخصائص التي يوردها كالتالي:

أ- لا يكتب انطلاقا من علم محدد، وإنما هو مراقب للباب الذي يفتح له.

ب - هو مستغرق في المقام منقطع عما سواه.

ج- هو ممتثل للأوامر.

د - هو جاهل لما يكتب وما يكتب عنه.

هـ- هو متحرر من علم ما يكتب فيه.

إن الكتابة الصوفية سفر وجودي متشعب المسالك، إنه سفر يجعل من لحظة الكتابة لحظة حتمية، لأنها تتولد عن سماعه لصوت المطلق وإذنه. يأتي الإذن عن طريقين: إذن في اليقظة وإذن في النوم. ارتبط هذا التصور للكتابة لدى ابن عربي بكون الكلام الإلهي لم يتوقف بتوقف الرسل، وإنما هو ساري في الوجود. لذلك سعى إلى بلوغ الولاية ليتمكن من التقاطه، وهي تجربة يقارن فيها بين قوة الوارد والمتلقي، فيضعها في ثلاث مراتب:

- أن تكون قوة الوارد أعظم من المتلقي.

- أن تكون قوة المتلقي أقوى من الوارد.

- أن تتساوى القوتان.

ما يؤطر هذه المراتب هو أن الوارد يُغَيب المتلقي عن نفسه وعن غيره. بالانشغال عن الوارد، يصبح فعل الكتابة ممكنا والوارد أسرع و أكبر من أن يتمكن من كتابة كل ما يسمعه عنه. الكتابة هنا موازية للوحي وهي استعادة له. للوحي صلة بالرؤيا، حيث يشير ابن عربي إلى أن الله خاطبه بدون واسطة، وخاطبه بواسطة الملائكة. كما كانت له رؤى قابل فيها الرسول وإليها استند في كتابة "**فصوص الحكم**". هنا يتساءل الباحث عن الرابط بين الصوفي والنبي وما الذي يفصل بينهما. للإجابة عن هذا السؤال يحيلنا على المقارنة التي أقامها ابن عربي بين الولاية والنبوة. انطلق ابن عربي من الإجابة عن الأسئلة التي طرحها الترمذي في كتابه "**ختم الأولياء**" معتبرا أن العلم بها لا ينال بالنظر العقلي وإنما بالذوق والتجلي. لقد تأسست إجاباته على التمييز بين نبوة التشريع التي انتهت بالنبوة المحمدية والنبوة العامة التي هي مقام العارفين بالأسرار ، وهي نبوة دائمة لا تنقطع، لذلك فهي أعم من نبوة التشريع والولاية أعلى من النبوة رغم أن الجامع بينهما ثلاثة أمور:

- تحصيل العلم من دون تعلم.

- الفعل بالهمة لا طاقة للجسم به.

- رؤية عالم الخيال تكون في الحس.

الكتابة الصوفية هي استحضار للرؤيا في اليقظة باستخدام آلية التذكر المرافق بالنسيان. إنها كتابة منفتحة على الغيبي. من ثمة كانت وسيلتها الخيال بامتياز، وكانت الكتابة من حيث بناؤها وترتيب قضاياها محكومة بفعل الإلقاء والتلقي لا بفعل الممارسة الواعية.

إن ابن عربي يعتبر الوجود قرآنا، فالكتابة الصوفية إعادة كتابة للنصوص القرآنية، لذلك نجده يسير وفق البناء القرآني، على اعتبار أنها وحي يتنزل عليه أو صوت يسمعه من داخل ذاته. هذا ما يوضحه بالإشارة إلى أن كتابه "**الفتوحات المكية**" إملاء من الله. غير أنه يشير أيضا إلى أنه قرأه من فتى طلب منه اطلاعه على بعض أسراره، وقد وصف هذا الفتى بأنه داعي إلى الوجود وهو "روحاني الذات، رباني الصفات". يعتبر كوربان أن هذا الفتى هو الأنا الإلهي. لكن مهما يكن، فإن كتابته كانت سفرا داخليا أي سفرا في الذات، حيث اقترن السفر في الوجود بالسفر في القرآن.

يستخلص الباحث أن الكتابة عند ابن عربي كان لها طرق متعددة في التلقي: التلقي من الله مباشرة والتلقي بواسطة الرؤيا والتلقي بالقراءة في الرق أو في الشخص أو في الوجود. تدل هذه الطرق المختلفة في التلقي على أن تجربة الكتابة عند ابن عربي هي كتابة بالغير، وذلك لاعتبارين:

- يوضح هذا المفهوم علاقة الداخل بالخارج. من هنا تأسس مفهوم الصورة على الغير بوصفه برزخا.

- مفهوم الغير مسعف في مقاربة تجربة الكتابة الصوفية.

ترتبط الكتابة عند ابن عربي بفعل الاستعداد بما يحقق لها التنزل أو الفتح على حد تعبيره. انطلاقا من هذا الفهم يطرح الباحث السؤال التالي: هل الكتابة فعل ذاتي أم أنها الشاهد على غياب الفعل الذاتي؟

للإجابة على هذا السؤال، يستحضر مفهوم الصورة. إن الصوفي يسعى إلى إظهار المطلق، بما هو صورة تجلت في ذاته. وسيلته في ذلك هذا السفر الذي يتغيا منه التخلص من قيود المحدود لمعانقة المطلق فيصبح المطلق سمعه وبصره واليد الذي يكتب بها بواسطة قلم إلهي. هذا سر اعتبار ابن عربي كتابته ظلا للكتابة الأولى. إنه يسجل الصوت الذي به تعالى عن محدوديته والذي هو بمثابة صورة له. لكن هذا لا يعني أن الكاتب الصوفي متلقي سلبي في تصور ابن عربي ذلك لأن:

- الفعل الذي يسنده للكاتب هو فعل برزخي. من هنا عد الصورة فاعلا ثانيا.

- اعتباره الكاتب قابلا، أي محل التلقي وهو وليد علاقة بين اثنين منتجة لثالث.

يتمثل الهاجس المتحكم في الكتابة عند ابن عربي في السعي إلى تحويل الغيبي إلى تجربة حياتية. وسائله في ذلك الخيال والصورة ووعيه بأن فعل الكتابة صادر عنه وعن غيره في مقام تتماهى فيه الذات مع الغير.

3 - الشعر و الكتابة

3 -1- التأثيل الصوفي لمصطلح الكتابة

القسم الثالث عنونه الباحث بالشعر والكتابة، حيث خصص الفصل الأول منه للحديث عن التأثيل الصوفي لمصطلح الكتابة. يقوم هذا التأثيل عند ابن عربي على الأساس الوجودي الذي هو محدد للمفاهيم وهو يرتبط عنده بالذوق، أي بتجربته الذاتية بما هي إطار لتأويل الكلمات وتأصيل للمفاهيم. إن تأصيل المفاهيم يتأسس عنده بالعودة إلى بداية العالم، ويتحدد انطلاقا من تجربته الخاصة. من هنا كانت المعاجم الصوفية تراهن على التجربة التي منها تستمد الدلالات. وفقا لهذا الرهان أُدرج التأثيل الصوفي للغة في إطار مشروع تأويلي يشتغل وفقا للحد بالذوق الذي تتحدد فيه دلالة الكلمات انطلاقا من التجربة الصوفية ومن مقام السفر لدى الصوفي. يجعل هذا المنطلق في التحديد الكلمات مفتوحة على دلالات لا حصر لها وإمكانات تأويلية مفتوحة. لذلك سعى الباحث إلى ضبط دور اللغة في بناء الصورة الكونية عند ابن عربي التي عدها تعكس تصوراته الأنطولوجية والمعرفية. لئن كان ابن عربي يراهن على الكونية، فإن هذه الكونية رسمتها الحدود الجغرافية للغة العربية. إذ المدلولات العامة تتحدد بالدوال التي تقدمها هذه اللغة. إن ربط الدال بالمدلول قاد الباحث إلى عدهما منطلقان للتأثيل. في التأثيل يوثق ابن عربي العلاقة بين البعد الأفقي للنص القرآني والبعد العمودي الذي يفتح مسارات عديدة للتأويل. يُمَكن هذان البعدان من الجمع بين استحضار السياق واستحضار المدلولات التي راكمتها الدوال عبر مسارات تداولها. هذا التراكم هو الذي عول عليه ابن عربي، بقصد النفاذ إلى دلالات جديدة قد تصل إلى حد قلب الدلالات المألوفة. من هنا اعتباره أن القلب من التقلب وهذا ما يمكنه من التقاط التجلي، واعتباره العقل عقال حاصر والحقيقة تأبى الحصر، و اعتباره أن اسم النبي شعيب مشتق من التشعب وهو دال على التجلي. وقد ربط الشعب بالاعتقادات، فكل اعتقاد شعبة. تقودنا هذه الأمثلة إلى استنتاج أنه يولد الدلالات اعتمادا على الحروف المشَكِّلة للدوال، بل إنه يستحضر أيضا مخارج الأصوات في بنائه للمدلولات.

يتبين من خلال ما أوردناه أن الدال مكون أساسي يقيم عليه إستراتيجيته في القراءة والكتابة. وبما أن الدال مأخوذ من اللغة العربية، فإن هذه اللغة هي المؤسسة للمعاني التي بناها ابن عربي في إطار تجربته الصوفية التي تعالق فيها البعد الوجودي بالبعد اللغوي.

لئن كان الدال آلية محددة للمدلول في بعده الأفقي، فإنه أيضا آلية محددة له في بعده العمودي. هذا ما يجعل للدال مدلولات متعددة حرص ابن عربي على إعادة بنائها وفق خلفية صوفية: فهو مثلا ينطلق من اعتبار الكتابة ضم وجمع، ويوجه هذا المعنى نحو تطور يتداخل فيه البعد الأنطولوجي مع تجربته الخاصة. مكنه ذلك من توسيع مفهوم الكتابة، بحيث إنه أصبح دالا على:

- الجمع بين الإلهي والإنسي: فإذا كانت الكتابة تحيل على الجمع والضم، فإن هذا لا يقف عند مستوى جمع الألفاظ بعضها إلى بعض، بل إنه جمع بين الألفاظ والصورة الباطنة القائمة في نفس الكاتب التي من أهم سماتها في الكتابة الصوفية تماس الإلهي بالإنسي، أي تماس المعنى الإلهي بأسمائه التي يراها هي أيضا أسماء الإنسان وإن كانت نسبها مختلفة.

- الجمع بين الضدين: أي الجمع بين الفعل الكتابي والخيال الذي يتميز بقدرته على استيعاب الضدية وتكسيره للحدود بين الثنائيات. إن الكاتب المطلق يؤلف بين المتماثلات والمتضادات في الوجود، لذلك يدرك الله عن طريق جمعه بين الأضداد. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. بما أن الإنسان صورة تجسدت فيه هذه الضدية، فإن الصوفي يسعى جاهدا إلى الترفع عن حواسه لاستكناه الروابط بين المتضادات.

ترتبط الكتابة بالتأليف، فهي ضم ووصل بين الأشياء المتناسبة. التأليف أعم من التركيب. لأن من خواصه التناسب. ينبني التناسب على رصد الخفي الجامع للأشياء التي تبدو في ظاهرها متنافرة. بذا تكون الكتابة الصوفية جامعة للمتضادات وفق أسس معرفية تقوم على مفهوم البرزخ الذي لا يدرَك إلا بالخيال، وهذا سر ترسيخ ابن عربي له بوصفه مجاوزا للحدود التي يرسمها العقل.

- الجمع بوصفه فعل شبقي: الجمع جماع وهو يتأسس على فعل الاتصال. إن الكتابة جمع بين الدال والمدلول. هذه الدلالة الشبقية هي آلية وظفها ابن عربي للإشارة إلى أن الكتابة الصوفية هي وصل بين الإلهي والإنسي، وهي لا تقف عند استحضار صورة المرأة، بل تتعداها لاستحضار رؤية الشيء في غيره، والمنطلق هو الشوق والوله والرغبة في البقاء في الآخر. إن الشبق هو برزخ، بما أنه مراوحة بين الإظهار والإخفاء. هنا تكمن حقيقة السر عند ابن عربي، فالكتابة التي تنقل السر تشغل آلية الشبقية التي هي آلية إجرائية عنده. يستمد ابن عربي المراوحة بين الإخفاء والإظهار من العلاقة بين الله والعالم، كما ظهرت في الأساس الوجودي الأول. فخروج الله من الخفاء إلى التجلي كان عبر إظهار أسمائه التي هي أسراره بتوسط الصورة التي اختزلت الإظهار والإخفاء معا. بذلك يكون السر محيلا على هذين الضدين، كما هو محيل على الشبقية الجامعة بينهما. من هذا المنظور، يفسر ابن عربي اختفاء الواو في "كن" باختفاء عضو الذكورة أثناء الجماع، ويفسر الكتابة لديه بأنها أمر يلقى.

إن كتاب "**الفتوحات المكية**" لابن عربي مظهر لهذا الجمع. لكنه جمع تم وفق آلية التبديد، ذلك لأنه قعد للجمع بآلية عكسية تراهن على قدرة المتلقي على جمع ما تشتت من أسرار في كتابه. منطلقه في ذلك ما حصره الباحث فيما يلي:

أ- وعيه بالتقاطع بين القراءة والكتابة. إن الكتابة جمع لما تشتت. وسيلته في ذلك القراءة الخاصة التي يمارس فيها القارئ إعادة البناء القائمة على إدراك العلاقات بين ما تم تبديده في الكتاب

ب- جعله القرآن نموذجا كتابيا. فقراءته للقرآن كانت عبارة عن إعادة توزيع لسوره لاستبطان معانيه وخصائصه.

بذا يستخلص الباحث أن آلية التبديد عند بن عربي ليست مقصورة على تشتيت العبارات، بل تتعدى ذلك إلى تشتيت المعاني. بحيث تكون العبارة الواحدة محتملة لمعنيين منفصلين. لينتقل إلى الفصل الثاني الذي يعنونه ب"ابن عربي والشعرية العربية القديمة".

3 - 2 - ابن عربي والشعرية العربية القديمة

ما يلاحظ على كتابات ابن عربي أن الشعر تقاطع مع ممارسته للكتابة ووجد موطنه داخلها. لذلك خصص الباحث الفصل الثاني من القسم الثالث ليؤكد ضرورة ربط الصلة بين الشعرية العربية القديمة والخطاب الصوفي. لهذا الربط منطلقاته القرائية الخاصة به. لذلك وجب نظر في علاقة اللفظ بالمعنى وعلاقة الشعر بالنثر وغير ذلك من القضايا التي أغنى بها الدرس النقدي القديم. لقد اقترن مفهوم الكتابة في الشعرية العربية القديمة بالأنواع النثرية التي أقام الدرس البلاغي علاقة بينها وبين الشعر. العلاقة بين الشعر والنثر هي ما أحال عليه بالعلاقة بين المحلول والمنظوم واقتران الكتابة بالمحلول من الكلام واقتران الشعر بالمنظوم منه. يرجع الباحث السياق النقدي الذي مكن من المقارنة بينهما إلى الإعجاز القرآني مستدلا **بابن رشيق** الذي يعتبر أن النثر والشعر هما معا دون القرآن. أما **القلقشندي**، فقد فاضل بين النثر والشعر وانتهى إلى تفضيل النثر، لجملة من الاعتبارات يلخصها الباحث على النحو التالي:

- للشعر قيود تجعل معانيه تابعة لألفاظه، على عكس النثر الذي تتبع ألفاظه معانيه.

- نقل المعاني التي تنظم شعرا إلى النثر يزيل عنها الطراوة، أما نقل معاني النثر إلى الشعر فيزيدها حسنا.

- نزول القرآن نثرا و تحريمه للشعر. مما يكرس المنظور الأخلاقي المؤطر للشعر.

ينظر ابن عربي إلى هذه المفاضلة من منظور صوفي، فقد عد السماء الثانية سماء الكتابة وهي خاصة بالكتاب و الخطباء، وهو يرى أن الغاية من الكتابة هي التأثير والإقناع. هذا ما يفصلها عن الشعر، الذي هو من الشعور ومحله الإجمال لا البيان. انطلاقا من هذه المقارنة، نفى القرآن صفة الشعر عن الرسول.

لأن وظيفة الشعر التكثيف، بينما وظيفة النثر التفصيل. بهذا يقيم منظوره للشعر من خارج القيمة الأخلاقية نافيا تبخيس القرآن للشعر.

السماء الثالثة هي سماء الشعر، لذلك يربطها ابن عربي بالتصوير التام والنظام، ويربط فيها المعنى ببنائه. يقوده هذا الربط إلى اعتبار أن الشعر أصل، من منظور أن الوجود مؤسس على النظام والإتقان. أما النثر فهو حجاب. إنه عجْز عن إدراك العلاقات السرية التي تجعل الكون في غاية الإتقان. هذا ما يعطي للشعر شرعيته. بذلك يبدو أن تأويل الشعر لا ينفصل عن الممارسة الصوفية. إذ التأويل تجربة خاصة لا تحتكم إلى خلفيات نظرية، وإنما إلى التجلي. هذا ما جعل ابن عربي يمجد تجربة أبي نواس ويقدم لنصوصه تأويلا خاصا بل إنه وظف الخمر والحب والغلمان والنساء لبناء دلالات صوفية وإظهار أسرار ربانية، موازيا في ذلك الشعر بالوجود في النظم والتركيب. إن الشعر مقدس، بحسب تصوره لأنه قائم على الإتقان والإحكام، وهو يوازي بين الأصول الأربعة للشعر التي هي السببان الخفيف والثقيل والوتدان المفروق والمجموع وبين الأخلاط الأربعة التي منها تكون الجسد، وهي التحليل والتركيب والروح والجسم والعلاقة بينهما الانتظام.

بالإضافة إلى هذا، ربط ابن عربي الشعر بالخيال لأنه ركن أساسي في المعرفة المتولدة عن الشعر وفي قراءة الوجود. تتعلق السماء الثالثة بصور الخيال والتمثل. من هنا عد الشعر أرقى من النثر. هذا ما يفسر سعي الكتابة الصوفية إلى تمثل خصائص الشعر، بما يجعلها ترتقي إلى مصافه فلا يفصل بينهما إلا الوزن و القافية. يحدد ابن عربي الترابط القائم بين الكتابة و الشعر فيما يرصده الباحث كالآتي:

- وحدة المصدر ، فتلقيهما يتم عبر الوارد أو الرؤى والأمر الإلهي والأمر النبوي.

- إعادة كتابة القرآن: يشترك الشعر مع الكتابة في كونه سماعا لصوت المطلق وعلاقتها بالقرآن هي علاقة إعادة كتابة.

- إستراتيجية الإخفاء: يرى ابن عربي الشعر أكثر قدرة على الإيماء والتكتم وصون الأسرار، وذلك لتميزه بخاصية التكثيف.

- البناء الخيالي: الكتابة والشعر تحصل عليهما ابن عربي غالبا عن طريق المنام، لذلك يؤكد أن "المنام حضرة الخيال"، وهو منتج للمعرفة بالوجود.

4 - بناء الخطاب لدى ابن عربي

4 - القصيدة العروضية

بتحديد أوجه الترابط، ينتقل الباحث إلى القسم الرابع الذي يتناول فيه بناء الخطاب لدى ابن عربي، وقد قسمه إلى فصلين تحدث في الأول منهما عن القصيدة العروضية التي اعتمدها ابن عربي إلى جانب اعتماده الأشكال الكتابية الأخرى. أول ما يلاحظ هو أن القصيدة عند ابن عربي ظلت مقيدة بالوزن والقافية. و ثاني ملاحظة هي أن بعض قصائده يمكن عدها نظما لا شعرا وهي تضاهي في ذلك ما دأبت عليه الثقافة العربية التي كانت تلجأ إلى النظم تسهيلا للتعليم. يشير الباحث إلى أن أهم ما ألفه ابن عربي فيما يخص القصيدة العروضية "**ديوان المعارف الإلهية واللطائف الروحانية**" و"**ديوان ترجمان الأشواق**". تناول فيهما تأملات في الكون وعلاقة الإلهي بالإنسي والانخراط في إعادة كتابة القرآن.

إلى جانب القصيدة العروضية، توسل ابن عربي الموشح الذي مكنه من الخروج من رتابة القصيدة العروضية وتنويع الشكل. بالإضافة إلى ذلك، انفتح على الكتابة النثرية التي خلق بينها وبين القصيدة العروضية وجوها من التعارض رصدها الباحث فيما يلي:

+ التصدير: حيث اعتمد القصيدة العروضية في تصدير كتبه، في هذا التصدير إرساء للعلاقة بين المنظوم والمنثور وتماهٍ بين المصدِّر بالمصدَّر. إذ المصدِّر هو عينه المصدَّر، حيث فتح ابن عربي حوارا بين شكلين من أشكال الكتابة. من خلال ذلك فتح إمكانات عديدة للتأويل. يوحي هذان الشكلان الكتابيان بأنه يعيش وضعيتين متمايزتين تكمل إحداهما الأخرى مع التركيز على ما يؤالف وما يفرق بينهما. يتقاسم الشعر مع النثر نقل تجربة الصوفي وإنتاج المعرفة، وهو ما يؤسس للتقارب بينهما في الكتابة عند ابن عربي.

+ التخلل: يزاوج ابن عربي بين المنظوم والمنثور في ثنايا مؤلفاته أيضا، مما مهد لظهور أنماط كتابية جديدة. اعتمد الباحث، في هذا الإطار، ديوان **"ترجمان الأشواق"** نموذجا لدراسة آليات اشتغال القصيدة العروضية لديه، فدرس بناء الديوان ليستنتج الخلاصات التالية:

أ – الظاهر والباطن: الديوان هو تجربة في العشق، صرح فيه بحبه لمعشوقته. غير أنه دعا إلى تجاوز الظاهر بالباطن، في محاولة منه تجاوز سلطة الفقهاء الذين أنكروا عليه ذلك. يؤكد الباحث أن الظاهر في هذا الديوان مقصود، كما أن الباطن فيه أيضا مقصود. إن ابن عربي يشدد على أهمية الظاهر من خلال نفي صفة الباطنية التي ألصقت بالمتصوفة، وهو في الآن نفسه يعتبر أن فصل الظاهر عن الباطن يفقده كلا منهما قيمته، مشددا على الطبيعة الاحتمالية للكلام وعلى أهمية المحل في التجلي معتبرا أن المرأة هي أسمى محل للتجلي الإلهي.

ب- الضمائر: توسل ابن عربي في القصيدة الواحدة ضمائر متعددة وأوردها بصيغ مختلفة: التذكير والتأنيث والإفراد والجمع، رغم أن الضمير المفرد المؤنث هو الضمير المتواتر. تشتغل هذه آلية في الخطاب الصوفي بشكل عام لتكشف عن مقام الحيرة حيث يلتبس الأنا بالهوية الإلهية. إن تعدد الضمائر يقف عائقا في تحديد المحال عليه. هذا مقصود، إذ فالضمير في الديوان يصبح برزخا يجمع بين إحالتين ويشي بالتعالق مع الآخر، فهو يحيل على المطلق بصيغة التأنيث في إشارة منه إلى أن المرأة هي صورة يتجلى فيها المطلق.

ج – المعجم: تميز توظيف ابن عربي للمعجم بالتأصيل لمعاني جديدة من خلال اعتماد المعنى الظاهر وقرنه بالمعنى الباطن. تتفرع عن هذين المعنيين تشعبات كثيفة تجعل القراءة منفتحة على احتمالات متعددة، وهذا ما يسم المعجم الصوفي بخصوصية متفردة تتجسد في التداخل بوصفه إستراتيجية أساسية في بناء الخطاب.

د- الإيحاءات الشبقية: تنبني على تكثيف الإيحاءات الشبقية في جل قصائد الديوان، حيث يتحدث عن جسد المرأة باستعمال تشبيهات مقتبسة من الشعر الجاهلي. لا يختص هذا الجانب بابن عربي لوحده، وإنما نجده في الخطاب الصوفي بوجه عام. في خطاب ابن عربي يوظَّف العشق لإقامة توازٍ بين الله وآدم من جهة، وبين آدم وحواء من جهة أخرى. فالحق خلق آدم على صورته وحواء مشتقة من آدم. ما يربط آدم بالله هو ما يربط آدم بحواء. فالحق يرى صورته في آدم وآدم يرى صورته في المرأة. من هنا يوازي بين الفناء الصوفي والفناء الذي يحققه النكاح ويوازي المعاني التي تتولد عن العلاقة بالمرأة، من تضرع وولع وشوق، بالمعاني التي يولدها التوجه الصوفي نحو الله. في هذا تأسيس للشبقية بوصفها آلية للالتحام بالمقدس.

4 - 2- شعرية الكتابة

في الفصل الثاني المعنون بشعرية الكتابة يقدم الباحث تنميطا للكتابة عند ابن عربي. حيث قسمها إلى نمطين: كتابة انشغلت أساسا بالموضوع وكتابة انشغلت أساسا بالشكل. عن هذين النمطين تفرعت الأنماط التالية من الكتابة:

+ الكتابة السردية: طغى فيها التوجه إلى إعادة كتابة نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي، وهو نمط طغى عليه السرد والتناسب في الجمل من حيث الشكل، وتناول من حيث المضمون قضايا وجودية، سعى إلى تقريبها إلى المتلقي بالشرح والتمثيل. يتخذ السرد أحيانا بعدا عجائبيا يقوم على الخيال خاصة في حديثه عن العالم الأخروي.

+ الكتابة المعجمية: نجد هذا اللون من الكتابة حاضرا في كتابه "**الفتوحات المكية**"، وقد حصره الباحث فيما يلي:

أ – انشغال هذا اللون من الكتابة بالمقامات، حيث خص كل مقام من المقامات التي تناولها بربط الكلمة بدلالات جديدة جمع فيها بين الخيال والرؤية والتجربة.

ب – توسل الترك، إذ بعد تحديده للمقام يخصه بمقام الترك، وهو بهذا يخلق مجموعة من الثنائيات المتضادة، كالخلوة وترك الخلوة والفرار وترك الفرار والصمت وترك الصمت.... يتضمن الترك معنى التجدد المستمر الذي على أساسه أقام نظريته في الخلق المتجدد. فدلالة الكلمة تتجدد بتجدد المقامات.

+ الكتابة الشارحة: توسل ابن عربي الكتابة الشارحة لإعادة كتابة الفقه الإسلامي من منطلق وجودي ومعرفي. لقد توخى من وراء ذلك ترسيخ مفهوم اليسر الذي اعتبره أساس الدين الإسلامي. يحدد الباحث خصائص هذه الكتابة فيما يلي:

أ - تجاوزه لما هو سائد في شروح الفقه الإسلامي بإدماج الخيال، إذ ربط كل قضية فقهية بسلوك خيالي غير مقيد بالضوابط الفقهية.

ب- بناء فقه جديد بالانطلاق من الفقه لمقاربة قضايا وجودية.

ج - ربط الكتابة بذوق خاص ومن ثمة بتجربة خاصة.

+ الكتابة الشعرية: اتخذت نفس المسار الذي سلكته الكتابة النثرية، إلى حد التداخل بينهما تداخلا يمكن اعتباره مشَكلا لإرهاصات ظهور القصيدة النثرية.

يرصد الباحث مظاهر التحقق النصي فيما يلي:

- الكتابة بآليات المعراج: حيث تحول المعراج إلى تجربة ذاتية وعنصرا من عناصر البناء النصي. المعتمد ليس هو بناء الدلالة وإنما كيفيات بنائها، بدءا من العنوان. يحيل المعراج على تجربة خيالية يسردها ابن عربي واصفا سفره في المعاني الذي يوازي سفره في المقامات. إن توظيف هذه الآلية فسح أمامه المجال لإعادة كتابة القرآن ومحاكاة مقومات بنائه متوسلا المناجاة وسيلة، ومخاطبة المطلق غاية تحضر فيها الومضات كأنها وحي يوحى.

- الكتابة الشذرية: يرصد الباحث ما يميز الشذرة في النص، من خلال جانبين: الوقفة والحكمة. اعتمد ابن عربي في الوقفة البناء نفسه الذي اعتمده **النفري** مع تغيير طفيف فإذا كان النفري يبدأ النص بقوله: أوقفني، فإن ابن عربي يبدأه بقوله: أشهدني الحق..وقال لي..يا عبدي مؤسسا المشهد على بُعد التكثيف، الذي يراهن على محاولة تطويق ما لا يقبل التطويق ومؤسسا النص على الحوار بين المطلق والمحدود، وموزعا بنية الجملة على النفي والإثبات ولعبة الضمائر، وفي هذا انعكاس للحيرة الحاصلة في علاقة الصوفي بالمطلق.

من ضمن الخصائص المحددة للكتابة عند ابن عربي التكثيف. يقوم التكثيف على موجهات عديدة من ضمنها التكتم في تقديم المعارف الصوفية واعتماد البياضات والإشارات المختزلة والغموض وغيرها من الموجهات التي اقتبسها من النفري، والتي تجعل إنتاج الدلالة في الشذرة يختلف عن إنتاجها في باقي الأنماط الكتابية الأخرى.

ينتهي الباحث إلى استخلاص أن ابن عربي يراهن في كتابته الشذرية على الإشارة. بما أن الإشارة تتقاطع مع الخيال ومع السر، فقد مكنه هذا التقاطع، وخاصة في شذرات كتاب **"مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية"**، من تجاوز الثنائيات إلى التثليث. إذا كانت الثنائيات تعبر عن التضاد فما ذلك إلا حجاب يحجب الائتلاف القائم بينهما وقد وظف ابن عربي الإشارة لكي يتمكن من أن يبين أن الشيء هو ذاته ونقيض ذاته في الآن نفسه. إن وحدة الشذرات تتأسس على الجمع، كما تنهض على حماية أسرار الصوفية في إطار جدلية تقوم على الإخفاء والإظهار وتنقل تجربة وجودية غير قابلة للتقييد.

رغم أن ابن عربي التزم بالوزن في بنائه للقصيدة، فقد كسر الحدود بين الشعر والنثر ، بانفتاحه على أشكال متعددة في الكتابة الشذرية التي لجأ فيها إلى التكثيف وتقاطعت فيها الوقفة بالحكمة. ارتكزت الوقفة على الحوار المطلق وارتكزت الحكمة على بناء دلالة شاملة معتمدها التجربة الذاتية، بما هي منطلق لصوغ الحقائق الوجودية. ارتبطت الحكمة بالشعر وبالتلميح والإشارة بكيفية مخصوصة في بناء العبارات، كتصديرها بلفظ "كل" وإنهائها بجملة "لا يعول عليه" من نحو: "كل علم لا يكون بين تحليل وتحريم لا يعول عليه." تجمع هذه البنية الجملية بين الإثبات في الشطر الأول من الجملة والنفي في الشطر الثاني، وهي إستراتيجية تبناها لصوغ العديد من الحِكم في رسالة "**لايعول عليه**" وفي غيرها من التآليف التي ألفها ابن عربي مثل " **كتاب التراجم**" و " **التدبيرات الإلهية**" وغيرها.

تتأسس الكتابة الشذرية على ما يسمى بالمقطعات. خاصيتها المحددة هي أن التسلسل المنطقي غائب فيها ليترك موضعه للبياضات التي تمتد بين الشذرات. توحي هذه الطريقة في الكتابة بأن لكل شذرة استقلالها الخاص. يمكن أن نفهم هذه الخاصية إذا استحضرنا علاقة الكتابة الصوفية بالخيال. من هذا المنطلق يُطرح السؤال التالي: هل تخلي الكتابة الشذرية عن التسلسل المنطقي يجعل منها كتابة غير نسقية؟

للإجابة عن هذا السؤال يدعو الباحث إلى التمييز بين المقطعة والتقطع. يمكننا هذا التمييز من ملامسة البناء الخاص للمقطعة، فهي لا تستند إلى العلاقات الواضحة وإنما إلى العلاقات الخفية. هذا ما يبيح لها الجمع بين المتضادات لإنتاج الدلالة انطلاقا من رؤية تخالف ما هو مألوف. إنها تعتمد الفصل وسيلة للوصل. بذا يتحدد طابعها النسقي الخاص. لقد حرص الباحث على توضيح الواجهتين اللتين تحددان الوشائج التي تتميز بها الكتابة الشذرية فيما يلي:

- انفتاح الشذرة على تآليف أخرى.

- تجسيد الوصل في الفصل: إن الفصل الظاهر هو تجسيد للوصل الخفي.

خاتمة

ينتهي الباحث من خلال مقاربته للكتابة الصوفية عند ابن عربي إلى أنها كتابة لا حدود فيها بين التجربة والنظرية. إنها كتابة تعكس تصورا وجوديا ومعرفيا بلغة لها خصوصيتها المميزة وبنياتها المتفردة و آليات اشتغالها المؤسسة التي من مقوماتها الأولية الربط بين الإلهي والإنسي ربطا يتحدد بالارتكاز على الخيال. لقد كان الخيال آلية حاسمة وظفها ابن عربي للجمع بين الثنائيات المتضادة باعتماد بعد جوهري هو الوسيط أو ما سماه بالبرزخ.

إن لغة ابن عربي تجاوزت التوظيف المعتاد للدلالات اللغوية والمعجم والضمائر لتخلق لغة أخرى مغايرة. لغة تنقل تجربة شديدة الخصوصية، تجربة تفتح أمام الصوفي عوالم لا محدودة و تضع الباحثين أمام إشكالات متجددة.

المراجع المذكورة

بلقاسم. خالد : الكتابة والتصوف . دار توبقال سنة 2004

النفري . عبد الجبار: كتاب المواقف و كتاب المخاطبات تحقيق آرثر يوحنا أربري . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة بدون تاريخ.

الترمذي محمد الحكيم : ختم الأولياء تحقيق عثمان يحيى. المطبعة الكاثوليكية. بيروت بدون تاريخ.

القلقشندي. أحمد ابن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرح و تعليق محمد حسين البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت 1987.

ابن عربي. محيي الدين: فصوص الحكم تحقيق و تعليق أبو العلا عفيفي. دار الكتاب العربي . بيروت الطبعة الثانية 1980.

ابن عربي. محيي الدين: رسائل ابن عربي . تقديم محمود محمود الغراب . ضبط محمد شهاب الدين العربي . دار صادر بيروت 1997.

ابن عربي. محيي الدين: ترجمان الأشواق. دار صادر . بيروت1996

ابن عربي. محيي الدين: الفتوحات المكية تحقيق وتقديم عثمان يحيى تصدير و مراجعة إبراهيم مذكور. الهيئة المصرية العامة للكتاب ابتداء من 1972.

ابن عربي. محيي الدين: التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية تحقيق و تقديم حسن عاصي. مؤسسة بحون . بيروت 1981.

ابن عربي. محيي الدين: الإسرا إلى المقام الأسرى تحقيق سعاد الحكيم . دندرة للطباعة و النشر بيروت 1988.

ابن عربي. محيي الدين: كتاب التراجم. مكتبة نور.

ابن عربي. محيي الدين : ديوان المعارف الإلهية واللطائف الروحانية. تحقيق عبد العزيز سلطان المنصوب دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع